

## بسم الله الرحمن الرحيم

### الحمد لله والصلاة والسلام على رسله الكرام

وهذه عجالة نقدمها إلى قراء العربية، على أنها مذكرات لطلبها الجامعة المصرية، ولمن يريد أن يطلع على شيء جديد مجمل عن حركة الأدب الحديثة، وطرق فهم البلاغة في هذا العصر. أما كبار العلماء، وأساتذة الأدب، فلا يجدون في هذه الآراء ما يشفى غلتهم، أو يسكن من حب الاستطلاع لديهم. فعليهم أن يرجعوا إلى كتب الفرنجة الحديثة، وفيها كل التفصيل لما أجملناه وأوجزناه. ذلك في غير الكلام في بلاغة العرب فإن كل هذا أوجله من آرائنا الخاصة التي اهتدينا إليها بالدرس والتفكير.

وإذا كان كتابنا هذا يدعو إلى سلوك طريق جديد في دراسة بلاغة العرب وفهمنا، فذلك لأن مصر الآن في حالة رقى (تطور) يشبه من بعض الوجوه أن يكونون عصر نهضة لنا. وفي مثل هذه العصور يحدث في العقول كما يحدث في المجتمعات انقلاب وتغير وميل إلى الجديد في كل شيء. وإنما لنجد هذا الشعور يدب في نفس كل إنسان منا حتى في النفوس التي لا تحب غير القديم.

إن كل ما يراه القراء في هذا الكتاب جديداً هو ما يجيش في نفوس الأدباء الذين اطلعوا على بلاغات الأمم الحديثة ورأوا الأطوار التي أدركتها فكانت سبب رقيها. وكلهم يعتقد أننا لا ننهض بلغتنا العربية إلا إذا دفعنا بها إلى التحرك من مكانها الذي طال وقوفها فيه، لتأخذ مكاناً واسعاً يليق بها في صف اللغات الحية الآن. وفي اعتقادنا أنه لا يكون ذلك إلا إذا تغيرت طرق

الدرس والتأليف عما كانت عليه منذ ألف سنة . وذلك ما ترجوا أن يوفق إليه  
علماء اللغة والأدب عندنا .

والله سبحانه المسئول أن يهبنا الإخلاص في عملنا، وأن يوفقنا إلى  
الصواب،

أحمد ضيف

يناير سنة ١٩٢١

## تمهيد (١)

دراسة الآداب العربى بالطرق المعروفة الآن لا تزال حديثة العهد. والأدب العربى على سعته وغنائه مشوش مختلط مرتبك، لا يزال باقياً على حالته الأولى من البساطة والسذاجة فى التأليف والجمع. ولم تحرر بعد عقول أدبائنا من قيود الطرق القديمة والانتصار لها. ولا يزال يعد الخروج من القديم خروجاً عليه. ولا يزال نعتقد أن القدماء وصلوا إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشرى من الذكاء والإتقان، وغير ذلك من ضروب الرضا والارتياح.

ومدرس الأدب يلزمه أن يطلع على أكثر ما كتب فى اللغة ليقف على روحها ومؤلفيها، وليعرف الكتاب والشعراء والفلاسفة والمشرعين وغيرهم. لا يكفى معرفة ذلك من بطون الكتب والفهارس والموسوعات، إذ لابد من قراءة الكتب نفسها والحكم عليها بناء على معرفة الشخص نفسه. وكل حكم مبنى على التقليد أو النقل لا قيمة له، ولا يفيد الأدب شيئاً ولا يصح الاعتماد عليه. فلا يصح أن نأخذ بالتسليم بقول من قال أن النابغة الذبياني أشعر الشعراء لأنه قال: فإنك كالدليل الذى هو مدركى الخ بدون بحث فى ذلك، ولا أن المهلهل أول من طول القصائد، لأن صاحب الأغاني أو غيره قال ذلك، بدون أن نبحت فى صحة هذا الزعم، ولا أن نصدق قول من قال أن لغة العرب أحسن اللغات، بدون أن نعرف شيئاً من اللغات الأجنبية

---

(١) هذا ملخص الخطبة التى افتتحها بها دروسنا فى الجامعة المصرية فى اليوم التاسع من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨.

ونوازن بينها وبين اللغة العربية. وإنما لنسئء إلى اللغة العربية وإلى الأدب العربي وإلى الأمة العربي أكثر من أن نحسن إليها بمثل هذه الأقوال التي لا يمكن أن يعتمد عليها إنسان مفكر، كما أنها لا تحرك العقول ولا تحملها على البحث. والعقل إن لم يكن طلعة محباً للبحث لا ينتج ولا يدرك حقائق الأشياء. وما يدعوه العلماء الآن حرية الفكر ليس إلا نوعاً من البحث المبني على التعقل والاستنتاج، وهو سر تقدم العلوم والفنون في المدينة المحاصرة. فلا بد لأدبائنا من هذه الحرية المبنية على المعلومات الصحيحة، والاستنتاج الصحيح.

والأفكار عندنا مقيدة محصورة: مقيدة بالعادات، محصورة في دائرة ضيقة من المعلومات، محدودة بشيء أشبه بالعتيدة في صحة ما نحن عليه من العلم والأخلاق. والخروج من العادات عسير، وترك الإعجاب بالنفس شديد على النفس مهما ضحت عزيمة محب الجديد وقويت براهين الداعي. وبلدنا من أشد ما يكون تمسكاً بالعادات وطرقه في الفهم والإدراك. ولكننا في إبان نهضة تبشرنا بحسن المستقبل وإقبال شبابنا على العلم وتعلمه وقبول الجديد يبعث فينا أملاً كبيراً في نجاح هذه الحركة المباركة.

العالم متحرك. والعلم والأدب نتيجة هذا التحرك، فهي متحركة معه ومتغيرة بتغيره. فلا بد أن تسير في هذه الحركة، وأن تنتقل معها، وأن تتجدد معلماتنا بتجدها. نريد بذلك أن نكون من أنصار الجديد.

ونريد بالجديد الحركة التي أحدثتها الأفكار والقرائح منذ وقوف حركة العلم والأدب عند المسلمين إلى اليوم. أي نريد أن تأخذ عقولنا ومعارفنا صبغة جديدة غير الصبغة الموجودة في كتبنا وفي معلوماتنا. لأن العلم يتغير

كلما كثر فيه البحث حتى لقد تنقلب العقيدة فى العلم إلى ضدها، إذ أن القواعد العلمية منبئة على الحكم على الظواهر الطبيعية، وقد يخطئ الإنسان فى إدراك هذه الظواهر أو يدركها ناقصاً. وقد يفهم المجرى من التجربة غير نتائجها حتى فى العلوم الرياضية والطبيعية، لأن جزءاً كبيراً من حكم الإنسان على الأشياء سببه العواطف والإحساسات الشخصية التى تختلف عند كل إنسان باختلاف مزاجه. وكما يكون للإنسان مزاج خاص يقوده ويتحكم فيه يكون أيضاً للزمن مزاج خاص يسود فيه ويقود الرأى العام.

يظهر أثر ذلك فى المذاهب السائدة، والأفكار العامة، ثم يتغير بمرور الزمن وكثرة البحث. والأفكار سائرة على مثال المد والجزر: تتقدم وتتأخر، ثم تتأخر وتتقدم. لأن الحركة فى كل شىء دليل الحياة. فلا بد من سير الفكر، إذ الفكر الواقف مائت. لذل نرغب من متأدينا وعلمائنا أن يعيرونا شيئاً من التسامح، وأن يعضوا الطرف عما عساه أن يكون غير جار على طرقهم فى الفهم والإدراك، أو مخالفاً لحكمهم على الأشياء، وأن يعتقدوا أننا نفعل واجباً علينا لبلادنا ولغتنا وأمتنا، وأنه يجب أن نضحى بكل شىء فى سبيل هذا الواجب. ونحن نعتقد من جهة أخرى أنهم مخلصون فى تمسكهم بتريبتهم العقلية، لأن شكر الجميل يقضى عليهم بالانتصار إلى معلوماتهم التى بها رقوا وعليها شبوا. ولكننا لا نعذرهم ولا يعذرهم إنسان إذا حكموا علينا بدون أن يتدبروا أقوالنا، ومن غير أن يدرسوا ما نقول دراسة خالية من الميول والأهواء. فكلنا يقصد إلى إصلاح لغته التى لا يمكن أن ترقى معلوماتنا بدونها.

اللغة العربية لغتنا لأنها لغة الكتابة والتأليف، ولأنها تستوعب لغة التفاهم بيننا. والآداب العربية آدابنا من حيث أنها أصل معلوماتنا، ومنبع

معارفنا ومواهبنا العقلية. بل هى كل ما نعرفه من الحركة الفكرية التى أحدثتها الإنسان وأنتجتها العقول، والقرائح. ولكننا نريد أن تكون لنا آداب مصرية تمثل حالتنا الاجتماعية وحركاتنا الفكرية، والعصر الذى نعيش فيه. تمثل الزارع فى حقله، والتاجر فى حانوته، والأمير فى قصره، والعالم بين تلاميذه وكتبه، والشيخ فى أهله، والعابد فى مسجده وصومعته، والشباب فى مجونه وغرامه. أى نريد أن تكون لنا شخصية فى آدابنا. ولا نريد بذلك أن نهجر اللغة العربية وآدابها، لأننا إن فعلنا ذلك أصبحنا بلا لغة وبلا أدب. إذ لا يمكن أن نصل إلى ذلك بدون أن نرجع إلى اللغة العربية وآدابها، بحيث تكون قاموساً لنا ونودجاً لبلاغتنا، وإماماً نهتدى به فى الصناعة الأدبية. وعلى الجملة تكون آدابنا عربية مصبوغة بصبغة مصرية. من هذه الوجهة يجب أن نتعصب للغة العربية وآدابها كما يتعصب الأوربيون الآن للغة اللاتينية واليونانية، لأنها أصل معارفه ومستودع سر مدنياتهم. ولا ينكر إنسان علينا ذلك لأن إنساناً لا يمكنه إنكار أثر المدنية العربية فى العالم الإسلامى. ونعود فنقول أن كل ما نرجوه هو أن تكون لنا آداب مصرية عربية: مصرية فى موضوعاتها ومعلوماتها، عربية فى لغتها وبلاغتها وأساليبها،

ولا يخفى على من ألقى نظرة إجمالية فى الأدب العربى صعوبة تدريس هذه الآداب. لأنها ليست آداب أمة واحدة وليست لها صبغة واحدة، بل هى آداب أمم مختلفة المذاهب والأجناس والبيئات. ذلك إلى سعتها التى لا تكاد توجد فى أدب أمة أخرى. ولذلك يكون من المتعسر على فرد واحد أن يقوم بجميع تاريخ الأدب العربى مهما علا كعبه. وقويت عزيمته، إذ لا بد له من الاطلاع على كل ما كتب ولديه أكثر من "مليونين" من المجلدات التى

يجب دراستها. وذلك لا يتسنى لفرد واحد، لتشتت هذه المؤلفات في جمعها ومعرفة أماكنها. ثم في طريقة تأليفها وصعوبة الاستفادة منها بدون جد طويل وتعب كثير. وذلك أيضاً إلى حاجة المدرس إلى التضلع من الفنون المختلفة ليتمكنه نقد ما يعرض عليه، إذ لا يصح لمدرس الأدب العربي أن يمر بمقدمة ابن خلدون مثلاً بدون أن يدرسها دراسة إجمالية يبين فيها مذاهب المؤلف السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولا يمكن ذلك إلا إذا وقف أيضاً وقوفاً إجمالياً على هذه المذاهب عند العرب وغيرهم قديماً وحديثاً، ليعرف الخطأ من الصواب في آراء صاحب الكتاب. ومثل ذلك يقال في الفلسفة والعلوم وغيرها. وهذا من الصعوبة بمكان لأن تعلمنا الأولى لا يبيح لنا هذه الكفاية التي اكتسبها أهل أوربا من دراستهم الأولى.

لهذا كان كل ما يعمل الآن في الأدب العربي من قبيل التمهيد. إذ لا يتسنى دراسته دراسة تامة إلا إذا جمعت خلاصته من شتيت الكتب الكثيرة المكاتب المتعددة، وكتب الباحثون في ذلك كتابات نقدية تبين هذه الآب، وما تحتوى عليه من الأفكار. وتناول البحث في ذلك العلماء والأدباء والمؤرخون والفلاسفة والاجتماعيون، وانتقلت الحركة الأدبية عندنا من البحث في اللفظ والديباجة، كالمجاز والاستعارة، والتشبيه والكناية إلى البحث في نفس الكاتب أو الشار ومقدار معلوماته. وما أودعه من خطأ أو صواب في شعره أو نثره. وما اعتراه من التأثير النفسى والخارجى، وحلمه على كتابة ما كتب، إلى غير ذلك من المؤثرات.

ولو أن همّة أدباء العرب اتجهت إلى هذا النوع من النقد والبحث، بدل بذل الهمّة في فهم اللفظ لوصلت الآداب العربية إلى ما وصل إليه غيرها من

المتانة والتأثير فى المجتمع، ولكن فهمنا لأدبنا أفضل وأكمل مما نفهمه اليوم، ولتغيرت طرق التفكير والخيال عندنا، ولسارت آدابنا مع الأيام، ولتقدمت مع العلوم والأفكار. لأنه لا شىء أدمى إلى التقدم من البحث والنقد. ولا شىء أدمى إلى الوقوف والتقهقر من الإعجاب بالشىء والإكتفاء به عن سواه.

والطريقة التى نريد أن ندرس بها الأدب العربى هى طريقة نقدية، إذ بدون هذه الطريقة لا يمكن لأى دراسة من نوع ما أن تنتج أو تثمر. ولا لأى فكر أن يرقى أو يتقدم، ولا يمكن أن تتخطى العقول أطوارها اللازمة، ما دامت مقيدة بتأييد فكرة أو رأى تعمل على إثباته. نريد بطريقة النقد البحث فى العوامل الحقيقية التى اعترت اللغة العربى وبلاغتها، بحثاً مبنياً على الأسباب العلمية والاجتماعية. ثم الحكم على ذلك حكماً صحيحاً بقدر ما تهتدى إليه عقولنا، وترشدنا إليه مباحثنا، وبدون أن نرجع إلى أقوال القدماء إلا من حيث أنها مراجع، أو شىء من تاريخ اللغة، لا أنها عمدة الآراء أو قادة الباحثين. أما إذا أخذنا هذه الآراء كأصل نقلده، كان أجدر بنا أن نربأ بأنفسنا من عناء البحث والعمل، لنسرد أقوال القدماء كما هى، أو نجمعها جمعاً مع بعض التصرف فى العبارة. فيصبح تاريخ الأدب ملخص ما فى كتب القدماء، ولا يكون للمؤلف إلا الجمع والاختصار. نريد أن ندرس الأدب دراسة علمية كما يقول الأوربيون. ولا يعنى بالدراسة العلمية كما لا يعنى الأوربيون أنفسهم أيضاً أن الأدب يصبح ذا قواعد لا يتعدها، كما فى العلوم الرياضية أو الطبيعة. ذلك لن يكون. لأن الأدب فن من الفنون الجميلة الحكم فيه موكول إلى الذوق السليم والإدراك الصحيح. وإنما تتبع خطة ذات قواعد وقوانين. وهذه الخطة هى ما يمكن أن تسمى طريقة علمية، كما سنبين ذلك إن شاء الله.

نحن لا ندعى القدر على القيام بهذا العمل الخطير . لأننا نعتقد أن أمامنا من الصعوبات فى سبيل ذلك ما لا يذلل إلا طول البحث والمثابرة على الدرس . وذلك لا يكون إلا بعد زمن طويل ، وهو ما نرجو أن نصل إليه إن شاء الله فى المستقبل . وليس من غرضنا أن نأتى فى دراستنا بسلسلة من الشعراء والكتاب ، نتبعها بشىء من تراجمهم والمختار من كلامهم . ذلك لا يعيننا الآن ، إذا من السهل أن يقف الإنسان على ترجمة الشاعر أو الكاتب ، ويعرف شيئاً عن حياته الأدبية . وإنما غرضنا البحث عن روح اللغة العربية كما يقولون . وحل ما بها من الشعر والنثر حلاً نفسياً ، والبحث عن صلة ذلك بالاجتماع ، وعن المؤثرات التى أحدثت فى نفس الشاعر أو الكاتب ميلاً خاصاً إلى هذا النوع من البلاغة ، ثم صلة ذلك بمواهب الكاتب الفطرية ، وقيمة ما عنده من فنون البلاغة وضروب التعبير المختلفة ، وما له من الشخصية ، أى الابتكار والإبداع فى ذلك . وهذا يستلزم استيعاب ما كتبه الكاتب أو الشاعر بالقراءة والدرس قراءة دقيقة ، خالية من الميول والأهواء الشخصية بقدر الإمكان .

ومن شروط النقد الصحيح أن يتعد الإنسان عن أهوائه وميوله عندما يقرأ كاتباً أو شاعراً يريد أن يفهمه كما هو . ولا بد أن يتخلى أيضاً عن أذواقه الخاصة ، لأن الاستسلام إلى ذوق الشخص ينافى طريقة النقد الصحيح . هذه الطريقة ، طريقة تخلى القارئ عن ذوقه الخاص ، وعن المؤثرات التى تحيط به ، تجعله يفهم الكاتب بذوق الكاتب ، ويفهم الشاعر بنفس الشاعر التى قال بها شعره . ولا بد من وضع القارئ نفسه فى الظروف والأحوال التى أحاطت بالكاتب وقت كتابته . هذه الطريقة هى التى يمكن القارئ أو الناقد من فهم

روح الكتابة . ولا بد من أن ينسى الإنسان نفسه بين صفحات الكتاب الذى يريد أن يقرأه . فإذا انتهى من تحليل الكتابة وفهمها على طريقة الكاتب نفسه ، رجع إلى معلوماته الشخصية ، وإلى ذوقه الشخصى ، وإلى ما اكتسبه من النقد بالتجربة والدرس ، فى الحكم على المؤلف .

يظن أهل العلم - ونريد باهل العلم المشتغلين بالرياضيات والطبعيات وعلم النبات والحيوان - يظن بعض هؤلاء أن الأدب من الكماليات . ويقولون كان أفضل وانفع لوفاق الاهتمام بالعلوم الاهتمام بالآداب . لأن من قسم العلوم كان يكون لنا المهندس والكيميائى والبنائى ، والطبيب والصيدلى ، وغيرهم ممن يفيد الاجتماع والأفراد أكثر مما يفيد الكاتب والشاعر والخطيب أو المؤرخ والفيلسوف . وفاتهم أن الإنسان كان شاعراً قبل أن يكون عالماً ، وكاتباً وخطيباً قبل أن تصل نفسه إلى درك العلوم وفهمها . لأنه أول ما نطق أمكنه أن يعبر عما يجول بخاطره من حزن وفرح ولذة وألم . وأن الأدب للنفوس أشبه بالجهاز التنفسى للجسم . ولكن فهم الأدب بهذا النوع جاءنا من آدابنا أكثرها مبنى على الخيال والاستعارة والتشبيه ، وهو على رأى أدبائنا أفضل الأدل وأبلغه . ولا شك فى أن هذا ضرب من الكماليات . أما الأدب ، من حيث أنه لسان النفوس ، وترجمان العواطف ، وضرورة الاجتماع ، وصحيفة من صحف التاريخ ، فهو من الضروريات لتهديب النفوس ، ومعرفة ما فى طبيعة الإنسان من الأمراض النفسية والاجتماعية . بهذا قد يصلح الأدب ما لا يصلحه الطبيب ، ويفعل الكلام ما لا يفعل الحسام . و " أن من البيان لسحراً " .

والأدب معرض عام لأفكار الإنسان ، ومسرح لأنواع العقول المختلفة :

تجد في الفيلسوف ينظر إلى العالم نظر المفكر. يشفق عليه تارة، ويسخر منه أخرى، ويرشده مرة، ويضله أحياناً. وتجد فيه الاجتماعي يبحث في الاجتماع وعلله، ويتحلل لنفسه حق الزعامة وحق الحكم على نظام العالم. وتجد فيه العلام والطبيب، والمتدين والملحد، كل يعرض مذهبه وطرق بحثه. وتجد فيه الشاعر الخيالي، يصور الحق باطلاً والباطل حقاً، ويؤثر في النفس فيسعددها أو يشفيها. ويصور اليأس جحيماً، والأمل جنة ونعيمًا. والأدب يجد فيه كل إنسان طلبته. فهو صحيفة عامة من صحف الكون.

وقد ظهر لنا من المفيد أن نبدأ دراستنا هذا العام بمقدمة عامة نعرض فيها صورة إجمالية من الحركة الأدبية، تحدد فيها الأدب، ونبين أنواعه وخواصه، وأثره في الاجتماع وصلته به، وأثره في النفس وأثر النفس فيه، والمذاهب الأدبية المختلفة، وطرق البحث والتأليف، وشيئاً من الموازنة بين الأدب العربي وغيره.

والله المسئول أن يرشدنا إلى الصواب وأن يكال أعمال الجامعة المصرية بالنجاح إنه على ما يشاء قدير.

\*\*\*